التحديات
في عهد علي
أبي السبطيـن رضـي الله عنـه

إعداد
الدكتور. محمد أمحزون
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس/المغرب

مقدم لـ

«مؤتمر السابقون الأولون ومكانتهم لدى المسلمين
(الثالث) الخلافة الراشدة
والقيم الفكرية والحضارية»

مقـدمـة

لقد واجه علي بن أبي طالب رضي الله عنه عدة تحديات بسبب أحداث الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان رضي الله عنه، واستمرت في عهـده، ذلـك أن القضـايا التي وقع الخلاف والنزاع حولها كانت مشتبهة ومعقدة إلى حد جعلـت المواقـف متباينة والآراء مختلفة.

وفي هذه الأجواء المشحونة بالفرقـة والخـلاف، ظهـرت السـبئية التـي جـاء زعيمها عبد الله بن سبأ بأفكار ومعتقدات وبدع تتناقض مع جوهر الدين المنـزل من عند الله عز وجل، سمتها الغلو: كالإمامة والعصمة والغيبـة والرجعـة، بـل دعا أتباعه إلى تأليه علي رضي الله عنه!!

كما ظهر الخوارج وهـم القـراء الـذين كـانوا في جـيش عـلي رضي الله عنـه، وخرجوا عليه بعد حادثة التحكيم.

ومن الخصائص المميزة لهم الغلو والإفراط والشطط والتنطع. كـما تميـزوا في منهجهم الحربي بالاندفاع والتهور والثورية العمياء والقابليـة السرـيعة للتمـزق والاشتعال؛ فالجلافة طبعهم، وضيق الأفق سمتهم.

ولما كانوا من ذلك الصنف البشري العنيد المحدود الإدراك الذي يضيق أفقه أو علمه عن تفهم الخلاف، وتثور نفسه لأتفه الأسباب ودونما تبصر في الـدوافع والعواقب، فقد أعلنوا تكفيرهم للمجتمع المسـلم في عهـد عـلي رضي الله عنـه،

وقتلوا ناسا مسلمين مما حدا بعلي رضي الله عنه إلى مقاتلتهم وهزيمتهم في معركة النهروان.

التحدي الأول: السبئية:

أ- عقيدتهـــم:

تنتمي السبئية إلى عبد الله بن سبأ الهمداني المنشأ، اليهودي الأصل. وابن سبأ هذا صُنِّفَ ضمن أصناف الغلاة، إذ يـزعم أن القـرآن جـزء مـن تسـعة أجـزاء، وعلمه عند علي رضي الله عنه، ولذلك فإن عليا نفاه بعدما همَّ به[١].

وهو أول من أظهر الغلو في عـلي رضي الله عنـه، بـدعوى الإمامـة والـنص عليه، وادعى العصمة له[٢].

وفي خطط المقريزي – وهو ذو ميول شيعية – أن عبد الله بن سبأ قام في زمـن علي رضي الله عنه، محدثا القول بالوصية والرجعة والتناسخ[٣].

وأورد ابن عساكر في تاريخه عن عمار الدهني قال سمعت أبا الطفيـل يقـول، رأيت المسيب بن نجبة أتى بابن السوداء ملببه (بعني ملازمه) وعلي رضي الله عنه على المنبر، فقال علي ما شأنه؟ فقال: يكذب على الله ورسوله[٤].

١- الجوزجاني، أحوال الرجال، ص ٣٨.

٢- الشهرستاني، الملل والنحل، ١/ ١٥٥. وابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٤/ ٤٣٥.

٣- المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٢/ ٣٥٦-٣٥٧.

٤- ابن عساكر، تاريخ دمشق (المخطوط) ٩/ ٣٣١.

وجاء من طريق زيد بن وهب أن عليا رضي الله عنه قال: مالي ولهذا الحميت الأسود، (يعني عبد الله بن سبأ، وكان يقع في أبي بكر وعمر)[١].

وروي عن أبي الجلاس قال، سمعت عليا يقول لعبد الله بن سبأ: ويلك! والله ما أفضى إلي بشيء كتمته أحدا من الناس (يقصد النبي ﷺ). ولقد سمعته يقول: إن بين يدي الساعة ثلاثين كذابا وإنك لأحدهم[٢].

وذكر الأسفراييني أن ابن سبأ قال بنبوة علي في أول أمره، ثم دعا إلى ألوهيته، ودعا الخلق إلى ذلك، فأجابته جماعة إلى ذلك في زمن علي رضي الله عنه[٣].

ويكشف الملطي عن عقيدة السبئية فيقول: ففي عهد علي رضي الله عنه، جاءت السبئية إليه وقالوا له: أنت أنت!! قال: ومن أنا؟ قالوا: الخالق البارئ، فاستتابهم، فلم يرجعوا، فأوقد لهم نارا عظيمة وأحرقهم[٤].

ونقل البغدادي أن السبئية لما أظهروا هذه البدعة الشنيعة وقالوا بألوهية علي رضي الله عنه، أحرق قوما منهم، ونفى عبد الله بن سبأ إلى المدائن، إذ نهاه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن قتله حينما بلغه غلوه فيه، وأشار عليه بنفيه حتى لا يختلف عليه أصحابه، لاسيما وهو عازم على العود إلى قتال أهل الشام[٥].

١- المصدر السابق نفسه، ٩/ ٣٣١.

٢- المصدر السابق نفسه، ٩/ ٣٣٢.

٣- الأسفراييني، التبصير في الدين، ص ١٠٨.

٤- الملطي، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ص ١٨.

٥- البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥.

وهذا يعني أن عدد السبئية في جيش علي رضي الله عنه عدد كبير لا يستهان به.

ب- دورهم في الفتنة الثانية:

جدير بالذكر أن هناك أخبارا متناثرة عند مشاهير المؤرخين والعلماء تكشف آثار ابن سبأ وأتباعه في الفتنة، إذ كانوا عماد الفتنة ووقودها في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه. ثم استمر هذا التحدي في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه. والذي يظهر من خطط السبئية أن هذه الفئة أو الجماعة كانت بارعة في توجيه دعايتها ونشر أفكارها السيئة، لامتلاكها ناصية الدعاية والتأثير بين الغوغاء والرعاع من الناس. كما كانت نشطة في تكوين المناصرين لها والاتباع في الكوفة ومصر، مستغلة العصبية القبلية، ومتمكنة من إثارة مكامن التذمر عند الأعراب والعبيد وبعض القراء وهم سلف الخوارج.

ولا يشك أحد ممن قرأ التاريخ بعين الإنصاف أن خروج الصحابة إلى البصرة، سواء طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم من جهة، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن معه من الصحابة من جهة ثانية، ما كان بقصد الحرب، وإنما كان خروجهم بقصد الإصلاح كما جاءت بذلك الأخبار الصحيحة.

فلما أرسل علي القعقاع بن عمرو للإصلاح مع أصحاب الجمل قال لطلحة والزبير: «إني سألت أم المؤمنين: ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد؟ فقالت: إصلاح بين الناس. فما تقولان أنتما؟ أمتابعان أم مخالفان؟ قالا: متابعان. قال:

فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ قالا: قتلة عثمان رضي الله عنه، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن وإن عمل به كان إحياء للقرآن»[١].

ولم يكن الإصلاح هدف طلحة والزبير وعائشة وحدهم، بل إن عليًّا أيضا لم ير في مسيره إليهم إلا الإصلاح وجمع الكلمة، حيث قال: «قد بان لنا ولهم أن الإصلاح والكف أحوط»[٢].

وعلى العموم، لم ير علي وطلحة والزبير وعائشة رضوان الله عليهم أمرا أمثل من الصلح وترك الحرب، فافترقوا على ذلك. ويبدو اقتناع طلحة والزبير بحجة علي من التريث وعدم استعجال أمر القصاص من قتلة عثمان حتى تهدأ الأحوال، ويتوطد مركز الخلافة، فيأخذ العدل مجراه.

فلما نزل الناس منازلهم واطمأنوا، خرج علي وخرج طلحة والزبير، فتوافقوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمرا أمثل من الصلح وترك الحرب حين رأوا أن الأمر أخذ في الانقشاع، فافترقوا على ذلك. فبات الناس على نية الصلح والعافية، وهم لا يشكون في الصلح. وبات الذين أثاروا الفتنة بشر ليلة باتوها قط، إذ أشرفوا على الهلاك، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها، وقال قائلهم: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما. وأما علي فلم نعرف أمره حتى كان اليوم، ورأي الناس فينا والله واحد، وإن يصطلحوا مع علي فعلى دمائنا[٣].

١- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٤٨٨.

٢- الباقلاني: التمهيد في الرد على الملحدة، ص ٢٣٧.

٣- الطبري، تاريخ الرسل، ٤/ ٤٩٣، ٥٠٥-٥٠٦.

وتكلم عبد الله بن سبأ وهو المشير فيهم فقال: يا قوم، إن عزكم في خِلْطِةِ الناس فصانعوهم، وإذا التقى الناس فانشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجعل بدا من أن يمتنع، ويُشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون، فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون[١].

ولا يمكن أن يفهم عاقل يقف على النصوص الكثيرة من كتب الحديث والتاريخ أن الصحابة رضي الله عنهم هم الذين حركوا معركة الجمل وأوقدوا نارها. وكيف يتأتى ذلك وكلا الطرفين كان الصلح قد نزل من قلوبهم منزلا حسنا. ولكن قتلة عثمان أصحاب ابن سبأ هم الذين أشعلوا فتيلها وأججوا نيرانها حتى يفلتوا من حد القصاص.

وأثناء تلك المعركة المؤسفة التي لم تكن برضا الطرفين من الصحابة، كان علي رضي الله عنه يتوجع على قتلى الفريقين ويقول: «يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة»[٢].

وروى ابن أبي شيبة بإسناده إلى حبيب بن أبي ثابت أن عليا قال يوم الجمل: «اللهم ليس هذا أردت، اللهم ليس هذا أردت»[٣].

١- المصدر السابق نفسه، ٤/ ٤٩٤.

٢- ابن أبي شيبة، المصنف في الحديث والآثار، ٢٥/ ٢٨٢.

٣- المصدر السابق نفسه، ١٥/ ٢٧٥.

ومر على طلحة ورآه مقتولا فقال: «عزيز علي أبا محمد أن أراك مجندلا تحت نجوم السماء»، ثم قال: «إلى الله أشكو عُجَرِي وبُجَرِي»، وبكى عليه هو وأصحابه[1].

وجدير بالإشارة أن أثر السبئية في الجمل وإشعال فتيل الحرب مما يكاد يجمع عليه العلماء والمؤرخون سواء أطلقوا عليهم الغوغاء أو المفسدين أو الأوباش أو أصحاب الأهواء أو سماهم البعض قتلة عثمان أو أطلقوا عليهم صراحة السبئية.

التحدي الثاني: الخوارج:

القراء سلف الخوارج:

من الملاحظ أن مفهوم القراء في عهد النبي ﷺ وخليفتيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، كان يعني من يقرأ القرآن ويحفظه، ويفقه معانيه ويتدبر آياته، ويتأدب بأخلاقه. وكان القراء هم جلساء عمر رضي الله عنه والمقربين منه في الناس.

والتحدي الثاني الذي واجه عليا رضي الله عنه في خلافته هم الخوارج، وكانوا قبل الخروج عليه إثر حادثة التحكيم يسمون بالقراء.

لكن ما لبث أن انحرف مفهوم «القراء» أو «القراءة» عن مدلوله الأصلي، فأخذ يكتسي طابعا يسوده عدم الفقه، والأخذ بظواهر النصوص، والتصلب في الرأي، والغلو والتشدد في الدين، حتى أننا لا نستغرب عندما نجد في مصادرنا التاريخية والحديثية المبكرة أن المقصود بالقراء هم الذين ساهموا في تأليب الناس في الكوفة على الخليفة عثمان رضي الله عنه، واشتركوا في معركة صفين مع علي

١ – ابن عساكر، تاريخ دمشق، (تهذيب بدران)، ٧/ ٨٩.

رضي الله عنه فرفضوا التحكيم، وصاروا خوارج بعد ذلك، يعبشون في الأرض فسادا، يقتلون وينهبون أموال المسلمين مستحلين لها بزعم أن من خالفهم كافر ليس بمسلم.

وكأن الرسول ﷺ كان ينظر إليهم من وراء حجب الغيب، حيث أطلعه الله جل وعلا على ما سيؤول إليه حالهم من خروج على الأمة وسفك دمائها بغير حق، فذكر أمرهم، وحذر منهم، وأثنى على قتالهم واستئصال شأفتهم، والأحاديث في الخوارج كثيرة سأقتصر منها على الحديث الذي أخرجه أبو داود بسند صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القيل، ويسيئون الفعل، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يرجعون حتى يرتد على فوقه، هم شر الخلق، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، من قاتلهم كان أولى بالله منهم**»[1].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يراهم شرار الخلق؛ لأنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين[2].

ويصف ابن حزم الخوارج فيقول: «وأسلافهم كانوا أعرابا قرؤوا القرآن قبل أن يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ. ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء ولا من أصحاب أحد من علماء الصحابة كعمر وعلي وابن مسعود وعائشة ومعاذ

١- أخرجه أبو داود في سننه، باب قتال الخوارج، ٤/ ٢٤٣.

٢- أخرجه البخاري في جامعه الصحيح، كتاب استتابة المرتدين، ٨/ ٥١.

وأبي الدرداء وأبي موسى وزيد بن ثابت وغيرهم، ولـذا تجـدهم يكفـر بعضـهم بعضا عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها»[١].

والذي ينبغي ذكره هاهنا أن هؤلاء القراء الذين صاروا فيما بعد خوارج أدوا دورا خطيرا في خلافة عـلي رضي الله عنـه، إذ سـاهموا إلى حـد كبـير في تكـريس الخلاف والفرقة داخل معسكر علي رضي الله عنه. فهم وإن كانوا أكثر النـاس في جيش علي عبادة وأقرأهم لكتاب الله تعالى، إلا أن الخلاف كـان متأصـلا فـيهم، وكأنه طبيعة القوم وديدنهم، فلم يفعل أمير المؤمنين علي شيئا إلا خالفوه، وكأنهم قصدوا المخالفة لتفريق كلمة المسلمين فقط، لا لاستبانة الحق والوقوف عـلى مـا يجب اتباعه.

وسأقف عند قضية واحدة لبيان التحدي الذي واجهه علي رضي الله عنه من قبل الخوارج، وهي: حادثة التحكيم.

من خلال تتبع السرد التاريخي لموقعة صفين يظهر أن القراء كـان لهـم دور في الموقعة بوصفهم مشاركين في القتال إلى جانب عـلي رضي الله عنـه. وقـد وردت إشارات كثيرة في المصادر عن ثباتهم وحسن بلائهم أثناء قتال أهل الشام[٢].

ولكن طلب أهل الشام من علي رضي الله عنه الاحتكام إلى كتـاب الله تعـالى أثناء المعركة أدى إلى وقوع الخلاف بين علي وأولئك القراء.

١- ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ٤/ ١٥٦.

٢- انظر الطبري، تاريخ الرسل، ٥/ ١٨، ٤٣.

فقد أخرج أحمد وابن أبي شيبة كليهما بسند صحيح عن حبيب بن ثابت قال: "أتيت أبا وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الذي قتلهم علي بالنهروان، فيما استجابوا له وفيما فارقوه وفيما استحل قتالهم. قال: كنا في صفين فلما استحر القتل بأهل الشام اعتصموا بتل، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى علي بمصحف وادعه إلى كتاب الله فإنه لن يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله... فقال علي: نعم أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله. فجاءته الخوارج، ونحن ندعوهم يومئذ القراء وسيوفهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تنتظر بهؤلاء القوم الذين على التل، ألا نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم بيننا وبينهم؟[١] فتكلم سهل بن حنيف فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم (وفي رواية) اتهموا رأيكم[٢]، وقال علي: أيها الناس إن هذا فتح. فقبل علي القضية، ورجع ورجع الناس، ثم إنهم خرجوا بحروراء أولئك العصابة من الخوارج...هـ»[٣].

وقد ساق سهل بن حنيف رضي الله عنه حديث الحديبية؛ لأن القراء أصروا على مواصلة القتال وأنكروا التحكيم، فأشار عليهم بمطاوعة علي رضي الله عنه، وأن لا يخالف ما يشير به لكونه أعلم بالمصلحة منهم. وذكر لهم ما وقع بالحديبية

١- أحمد: المسند (بترتيب الساعاتي) ٢٣/ ١٤٥. وابن أبي شيبة، المصنف، ١٥/ ٣١٨.
٢- البخاري: الجامع الصحيح، كتاب التفسير، ٦/ ٤٥. وكتاب الاعتصام، ٨/ ١٤٨.س
٣- ابن أبي شيبة، المصنف، ١٥/ ٣١٨.

من أن الصحابة رأوا يومئذ أن يقاتلوا ويخالفوا ما دُعُوا إليه من الصلح، ثم ظهر أن الأصلح هو ما كان النبي ﷺ قد شرع فيه من الصلح.

على أن الخوارج رفضوا مبدأ قبول التحكيم في النزاع أصلا، ذلك أنهم قالوا: «لا حكم إلا لله»، مقررين أنه لا يجوز العدول عن حكم الله تعالى إلى حكم الرجال.

وقد سبق إلى نقض فهم الخوارج لهذه العبارة على بن أبي طالب رضي الله عنه، إذ يُرْوى أنهم أنكروا عليه يوما في المسجد بقولهم: «لا حكم إلا لله» فأجابهم، بقوله: «كلمة حق أريد بها باطل»[١].

وقد كان هذا الباطل أنهم قالوا: لا حاكم إلا الله. ولذلك أجابهم علي رضي الله عنه: «نعم لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله وإنه لابد للناس من أمير»[٢].

وقد أراد علي رضي الله عنه أن يبين سطحية تفكيرهم ورداءة عقولهم، كما جاء في الحديث: «**سفهاء الأحلام**»[٣]. فجمع الناس فدعا بمصحف فجعل يضربه بيده ويقول: أيها المصحف، حدث الناس، فقالوا: ما هذا إنسان؟ إنما هو مداد وورق، ونحن نتكلم بما روينا منه، فقال: كتاب الله بيني وبين هؤلاء، يقول

١- أخرجه مسلم في الجامع الصحيح، ٧/ ١٧٣.
٢- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٥٨.
٣- أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، ٨/ ٥٢.

الله في امرأة رجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾[1][2].

١- سورة النساء الآية (٣٥).

٢- أخرجه أحمد بسند صحيح، المسند (بترتيب الساعاتي) ٢٣/ ١٥٩.

خـاتمـة

ومن الملاحظ أن التحكيم كان سببا مباشرا في الخلاف بين علي رضي الله عنه والخوارج، وقد انتهى أمرهم إلى أن قاتلهم فهزمهم في موقعة النهروان هزيمة نكراء، فبيتوا أن يقتلوه. ولا ريب أن الموقف السلبي الذي وقفه الخوارج من علي رضي الله عنه كان عاملا حاسما في انتقال الحكم من الراشدين إلى الأمويين بعد اغتياله على يد ابن ملجم الخارجي.

وبدأت الفتن تجتاح الأمة الإسلامية، وبدأ ظهور الفرق ذات الآراء السياسية والعقائدية، ولم يعد من سبيل للعودة إلى الطريق القويم الذي أراد الحكمان أن يضعا الأمة عليه، ويحلا الخلاف بين أصحاب رسول الله ﷺ وأنصارهم من خلاله.

على أن انتقال الخلافة إلى الأمويين لم يقض على كل المشاكل، فإن روح المعارضة استمرت عند الخوارج في شكلها المبالغ فيه، المتطرف مصارعة ومقاتلة، حيث كانوا خسارة كبيرة للمسلمين في دمائهم وأموالهم ووحدة كلمتهم.